

عناية أهل المغرب العربي بالرسم القرآني وضبطه وأثر ذلك في ندوة كتاب الله تعالى وقرائه

بقلم الأستاذ/أبو عبد التواب عبد المجيد رياش

مدخل:

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الرسم القرآني علم نشأ مع نزول القرآن فأول حرف كتب يعتبر أول حالة من حالات الرسم القرآني أسست، واكتمل مع اكتمال المصاحف العثمانية التي أشرف على تدوينها شهيد الدار ذو النورين إمام الراسمين عثمان بن عفان رضي الله عنه وعن جميع إخوانه من الصحابة الأطهار.

ومن حكمة الحكيم أنه وفق تلك النخبة من الراسمين إلى رسم القرآن الكريم على طريقة حققت المرامي العامة لكتاب الله . عز وجل . سواء من حيث القراءات، أو من حيث الجوانب العقدية، أو من حيث الجوانب الأدبية؛ بل حتى جانب الأحكام الشرعية، فتحققت هيمنة هذا الكتاب العظيم

على ما سبقه من الكتب؛ قال نجم علماء القراءات الرعيني الشاطبي في عقيلته عن سر كتابته بحروف عارية عن النقط والضبط:

فَجَرَّدُوهُ كَمَا يَهْوَى كِتَابَتَهُ

ما فيه شَكْلٌ وَلَا نَقْطٌ فَيَحْتَجِرَا

فأشار . رحمه الله . إلى أنه من أسرار كتابته بدون نقط ولا شكل كي لا يتحجر على وجه من الوجوه المرادة من الكلمة الواحدة، فهو الكتاب الميسر فإننا كما سنرى في بعض الكلمات لو كتبت مضبوطة أو منقوطة أو بثبتت بعض الحروف لأدى ذلك إلى تحجر كلماته، فلاتحوي المعاني المرادة، ولا تتحقق الأهداف البعيدة التي يرمي إليها القرآن العظيم.

ولقد اهتم مسلمو المغرب العربي بعلمي الرسم والضبط القرآن اهتماما

ملف العدد

ينقطع دونه، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعاً عن العلم بالجملة.

وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب، ومن تبعهم من قرى البربر أُمم المغرب في ولدانهم، فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم.

قلت: نعم هم أقوم على رسم القراء وحفظه من سواهم، فقد تجاوزت مع كبار القراء من المشرق فلم أجد عندهم ما عند أهل المغرب العربي.

ولقد كان أهل المغرب العربي يتدارسون مسائل الرسم والضبط في مجالسهم المختلفة فأعراسهم لا بد وأن يكون في الموكب الذي يأتي بالعروس من الحفظة الذين يتقنون الرسم، وذلك لأمرين:

1 - لأنه تنشأ بين أهل العروس "الزوجة" وأهل العروس "الزوج" مباراة في مختلف الأمور؛ ومنها: علم الرسم والضبط القرائي، وإن غلب أهل الزوج لا تُخرَج إليهم العروس إلا بالفدية.

2 - لأنه يمكن لأي واحد ممن يمرون عليه في الطريق أن يقتحم الموكب ويمسك لجام البغلة التي تركبها العروس ولا يخلصهم منه إلا أن يتفوقوا عليه في مسائل الرسم والضبط القرائي أو الفدية!!!

عظيماً جعلهم في الصدارة بين إخوانهم بمختلف بقاع الإسلام ولا يمكن لأحد مهما كان حاله أن يدخل ميدان علم القراءات أو ميدان علم الرسم دون أن يمر بمدينة شاطبة ودانة وبلنسية وغيرها من المدن التي خدمت الإسلام خدمة لا يزال أثرها يتكلم إلى يومنا هذا.

ولأهل المغرب العربي طريقة تميزوا بها عن غيرهم في تعليم أولادهم كتاب الله؛ ألا وهي طريقة الإملاء والكتابة على الألواح ولا يعرف فائدتها إلا من مر بها؛ هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإنهم يحفظون الولد قواعد الرسم القرائي كما يحفظونه الكلمات القرائية، فيجتمع لدى الصبي من صبيانهم حفظ القراءان الكريم وحفظ قواعد كتاباته، وقد كان هذا حالهم من القديم واستمر معهم إلى الأيام القريبة.

قال ابن خلدون في المقدمة: فأما أهل المغرب فمذهبيهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارس بالرسم ومسائله، واختلاف حملة القرآن فيه لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث، ولا من فقه، ولا من شعر، ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه أو

حفظُ القرءان الكريم وحفظُ قواعد
كتباته".

وأذكر أنني لما قدمت لوحتي للشيخ
كي يصححها لي وكانت بنصف: ﴿وَإِذَا
صُرِفَتْ﴾ كتب لي في أسفل اللوحة:
سيماهم فسته منقسمة تراهم اثنين في
الأعراف هم منقبون ووحد في الفتح هو
ثابت وما بقي من غيرياء يا أخي في البكر
والرحمن والقتال. فحفظتها.

وما يكتبه الشيخ لطالب من الطلاب
لا يخصه هو دون غيره من زملائه، وإنما
يجب على كل واحد أن يحفظ ما كتب
لزملائه بألواحهم، وإن لم يأخذ منهم
فعلت العصا فيه أفعالها.

وكانت النصوص المشهورة يحفظها
الطلّبة "الشيخوخ"، والطالب "الشيخ"
الماهر المتمكن يضع قواعد من عند نفسه
لطلابه، ولا عجب أن تجدها بالعامية؛ بل
قد تجدها بالأمازيغية، فقد قرأ علي أحد
المغاربة بعضاً من النصوص بما يسمى:
"الشلحة".

كما أنه من حين لآخر تنشأ مباريات
بين الطلبة أنفسهم سواء بحضرة الشيخ
أو في غيبته.

ولقد كنت في أيام دراستي بالجامع
ضمن موكب عروس ابن عم لنا وبالطريق
مسك زميل لنا لجام بغلة العروس فأتاه
الحفظة واستمر الجدل معه إلى قال له
أحدهم: كيف تكتب: أو لأذبحنه؟ فلم
يعرفها. فاستسلم ورجع من حيث أتى:.
هذا في مجالسهم العامة.

وأما المجالس الخاصة وأقصد بها
المدارس "الجوامع والزوايا" فإن الطالب
منهم يجب أن يتقن مسائل الرسم
والضبط وإلا فإنه لا يمكن أن يكون من
الحاذقين، وليستعد للعصا، فالشيخ
يملي الكلمات على الطالب فيتلقها
منه ويقرأها كما أمليت عليه وإلا أكلته
العصا، فإن سلّم من هذه تركه الشيخ
وتنقل إلى الذي يليه، وعند عودته إليه
ينظر كيفية كتابته لما أملاه عليه أنفاً فإن
كانت سليمة نجا وإلا فالعصا.

وبعد هذا لا يحق للتلميذ أن يحفظ
مما كتب إلا بعد أن يصحح له الشيخ
لوحته وعند التصحيح يكتب له الشيخ
القواعد التي تناسب المقدار الذي كتب،
وقد يمليه عليه أثناء كتابة اللوحة
فيتحقق ما أشار إليه ابن خلدون:
"فيجتمع لدى الصبي من صبيانهم

رسم القرآن وحفظه من سواهم.

وبعض هذه القواعد فيها التنقيص من قيمة من يقع في مخالفتها تنفيرا له من الاتصاف بتلك الصفة فيحترس من الخطأ في كتابتها مرة أخرى، فمثلا: محص "ضبط" الميم الساكنة إذا وقعت بعدها الميم كان الشيخ يقول لنا: "الميم للميم مَا يَمْحَصُهَا إِلَّا ابْنُ الْهِمِيمِ".

فقلت مهذبا لها: "الميم للميم لا تمحص يا فهميم".

ومنها: "وَأَسْأَلُ بِغَيْرِ أَلْفٍ يَا بَغْلُ".
فقلت مهذبا لها: "واسال بحذف الألف يا فحل".

ومنها: إذا ما تعرف تضبط اهدنا لا تصل بنا.

وبعض هذه القواعد يكون على شكل وصايا وتنبيهات، مثل قولهم: يا طالبا تقرا وتحوس لبليدة عمرك لا تخفض رويدا. والكثير منها عبارة عن أجوبة لسؤال وقع أو قد يقع:

يا سائلا عن الواو المبدلة:

يوخر، موذن، موجلا

أن تودوا، يويد، فليود

ولويواخذ، تمام العد

وقال آخر:

وأما إذا انتقل الطالب من جامع إلى آخر أو من زاوية إلى أخرى فإن أيامه الأولى تكون عصبية إن لم يكن من المهرة؛ لأنه سيمتحن من طرف الطلبة المهرة في طرق الامتحان، فقد يعطى كلمات لا وجود لها في القرآن كلية؛ مثل قولهم: في العُقْدَةِ التاء مربوطة أو مفتوحة، وكذا: والنازعات نزعا أو نزغ، وكذا: وكم من ملك في السموات والارض أو والارض، وقد تكون الجملة مقلوبة؛ مثل: توابا إذا جاء نصر الله الألف قطعي أم نقلي، فإن لم يكن الطالب فطنا منتبها وقع وقعة جعلته مسخرة بين أقرانه.

ولا غرابة أن يتعرض التلاميذ للامتحان من طرف من يلاقيهم سواء في تنقلاتهم العادية، أو عندما يختمون "يزوقون" ويأخذون الألواح لأهاليهم، فإنهم لا يعطونهم الإكراميات إلا بعد أن يبرهنوا على حذقهم لمسائل الرسم والضبط القرءاني.

وأما إن خرجوا يشحذون للشيخ في المناسبات فالأمر أعظم، ولهذا لا يرسل الشيخ إلا من كان قد أتقن حفظ القرآن ونصوص رسمه وضبطه.

وبعد هذا كيف لا يكون أهل المغرب العربي كما قال ابن خلدون: أقوم على

ف فليقاتل. . أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ
وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ
ووالله فضل.. أَيْنَمَا يُوجِّهِهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ
ل لئن لم ينته. . مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا
أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا

وهذا النوع كثير جدا، وأكبر رمز منه
وقفت عليه: رمز فبأي آلاء ربكما تكذبان
المعروفة بسورة الرحمن.

أثر عناية أهل المغرب بالرسم والضبط القراءاني:

لقد قال لنا ابن خلدون إن أهل
المغرب العربي أوصلهم اعتناؤهم بالرسم
القراءاني إلى سبق غيرهم ولقد عشنا هذا
في الواقع فإن الكثير من رجالات الإقراء
في بلاد المشرق العربي كالغرباء عن هذا
الفن الذي هو الحصن الذي حصن به
كتاب الله فلم يتمكن من اقتحامه أهل
الأهواء وخاصة من ناحية أهل المغرب
العربي؛ لأن أهل المغرب رجالاتهم حفظة
مهرة في هذا الفن فهم كما بينا لا يكتفون
بحفظ حروف كتاب الله؛ بل يحفظون
معه عن الكلمة الواحدة منه العديد من
النصوص، فمثلا: - وامتازوا فوق السطر
حازوا.

- وامتازوا رافع "أورافد" عكازو

يا سائلا عن رسم عادا الاولي
فضبطه خذه عني منقولا
تنوينه متبع لنافع
ادغامه عنهم شائع
وقال آخر:

يا كاتباً ألف لأميم الله
حركة ونقطة فوقاه
ولا تراع للميم الموجودة
لأنه يضبط على المفقودة

وقال آخر:
يا طالبا تقرا وتمشي للجبال
قلوبكم تسبق به في لن تنال

وقال آخر:
محيأي بالتعويضة والاثبات
والمدي والسكون يا سدات
وقال آخر:

ياهمان ياشمان يالمكشوف
يا لالي وسطك ثابت واجناحك محذوف
وتارة يجعلون له رمزا يرمزون به لما
يريدونه بكلمة أو جملة وكل حرف من
حروف تلك الكلمة أو الكلمات يشير إلى
الكلمة المرادة، ومنها:

ما جاء في كلمة: "أينما" فإنها تكتب
موصولة ومفصولة، ولتمييز الموصولة
عن المفصولة قالوا: مَفْعُول

م ما ننسخ. . وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا
تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ

اختلافاً كلياً؛ لأنهم لم يلتزموا فيما كتبوه قواعد الرسم القرءاني التي هي محل إجماع من يعتد بكلامهم من أهل العلم.

- أنهم لا يتساهلون في الحكم على المصحف الذي يقفون فيه على ما خالف المعمول به لديهم بأنه محرف، فقد كان الشيوخ لا يبيحون لنا النظر في المصحف التيجاني التونسي، لا يسمح لنا بالعودة إليه لما فيه من المخالفات لما عليه العمل بناحيثنا؛ بل كانت لهم تصويبات حتى على مصحف الثعالبية.

ولذا من نظري مصاحف أهل المشرق يجد بعضها كتب وفق القواعد الإملائية، وبحوزتي العديد من النسخ الخطية للقرءان الكريم كتبت بالمشرق العربي لم أرفقها أثر الاعتناء بالرسم القرءاني، وإذا ما بحثنا في رفوف المكتبات الإسلامية في مناطق المغرب العربي نجد نماذج فريدة من المصاحف الخطية، وأحسن مثال لهذا:

المصحف التونسي المحزب الكتوب برواية حفص وفق اختيارات أهل المغرب في الضبط فقد برهن كاتبه على براعته في علم الرسم والضبط، وكذا علم القراءات فإنه كثيراً ما يكتب أسفل الكلمة بالأحمر الكيفية التي تقرأ عليها تلك الكلمة حال

وهذا أدى إلى أن ظهرت مصاحفهم في أحسن حال، فهم يترجمون حفظهم لنصوص الرسم والضبط في ألواحهم ومصاحفهم، إضافة إلى دقة منهجهم.

فمن أراد تعلم طريقة الضبط فعليه بمصاحف أهل المغرب العتيقة، وذلك لما يلي:

- لأنهم يرون أن الرسم القرءاني لازم لكل من أراد دخول ساحة كتابة المصحف؛ بل قد لا تجد كاتباً من كتبة المصاحف لا يتقن أوليات الرسم والضبط القرءاني.

وبذلك فاقوا غيرهم من أهل المشرق الذين سلموا أمر المصحف إلى الخطاطين الذين قيدوا أنفسهم بقواعد الخط بدلاً من قواعد الرسم والضبط، فالكثير من مصاحف أهل المشرق ليس فيها أي أثر لقواعد الرسم القرءاني.

والخطاطون ينظرون إلى ما كتبه: بن مقلة وابن البواب وابن المذهب أنموذجاً فريداً في تطور الخط العربي.

ولهم أن يقولوا ذلك من حيث الكلام عن أصول فنهم، وأما نظرة علماء الرسم والنقط إلى مصاحفهم فهي تختلف

العربي" قراءة القرآن عندنا وخاصة في بعض حلق القراءة الجماعية لا تتعجب إن سألك عن اللغة التي يتكلمون بها، فأحكام الأداء قد غادرت مناطق المغرب العربي منذ أمد طويل، وحتى معالم الرواية انمحت، فلم يبق من رواية ورش إلا النقل في مثل الارض والابل أو البديل في المومنون ويواخذ؛ بل الغريب في الأمر أنني سمعت أحداً يُقرئ الأولاد آخر الضحى كما يلي: وأما بنعمة ربك فحدثا بفتح الثاء ممدودة!!!

ولا شك أن هذا الخطأ وأمثاله سوف يفعل فعلته بالمجتمع، وقد حدث والله المستعان فقد سمعنا الكثير ممن يقرأون القرآن بما يدمي القلوب الحية وإن كان ممن فتن بحسن صوته تزداد فتنته ومصيبة الأمة في أن يقف وراءه العامة، فيمدحونه بما يجب أن يوعظ عليه .

وقياما منا بواجب خدمة كتاب الله وقرائه نطالب بالعودة إلى ما كان عليه الأوائل في طريقة التعليم . مع الأخذ بما يقتضيه التطوير المنهجي . والاهتمام بالنصوص التي كانت متداولة عند أسلافنا، فهي تراث لا يستهان به، ولا يمكننا الاستغناء عنه.

الوصل أو حال الابتداء، إضافة إلى أنه استخدم الألوان دليلا على تغير أحكام الأداء وخاصة في مقدار المد وحكمه.

وأما من حيث براعته في فن الخط فلا تسأل عنه فإنه استطاع أن يحافظ على تناسق الأسطر والكلمات مع كبر الصفحة ودقة الخط فالصفحة الواحدة احتوت حزبا كاملا ولا يصل إلى ما وصل إليه إلا الفحول وقيل ما هم.

ولقد قرأت بعض صفحاته فكانت الأخطاء التي وقفت عليها فيه لا تكاد تذكر مع حال المصحف.

واقعنا المر: من نظري واقع أهل المغرب العربي في هذه الأيام يتألم ألما شديدا لما وصل إليه حال أهل المغرب العربي مع كتاب ربهم، ومن جميع النواحي، فقد فقدوا أسانيدهم في قراءتهم لكتاب ربهم وكان حالهم حال من عقد يده على الماء ولما فتح يده وجدها فارغة.

-وأما من حيث الأداء فإنه كما قلنا: لا يمكن لأحد أن يصل إلى علم القراءات دون أن يمر على شاطبة ودانة وبلنسية وغيرها من المدن الأندلسية وكذا المغاربة ولكنك اليوم إذا أسمعْتَ غربيا عن المنطقة "منطقة المغرب

وقد يجد القارئ بعض الأبيات على غير ما حفظ أو ما كتب، فأقول: نعم ذلك وارد؛ لأن الكتاب انتشر انتشارا واسعا، حيث تلقفه المعلمون والمتعلمون واهتموا به اهتماما كبيرا، وأثناء ذلك بدل منهم من بدل، وزاد منهم من زاد. فكان ذلك سببا في ما أشرنا إليه؛ هذا أولا.

وأما ثانيا: فإن هناك الكثير من المنظومات المسماة بـ"الجكني" فربما يكون قد اختلط بعضها ببعض، ولقد وقفت "أخيرا" على منظومة تسمى: الجكني فظننت أنها نسخة من نسخ هذا النظم الذي أقدمه للقارئ، ولما تصفحتها وجدتها نظما آخر، وليست هي المسماة بـ"رسم الطالب" كما قد يقول قائل.

وإنني سوف أعمل على خدمتها وتقديمها لطلبة العلم، ولا ضير على طالب العلم إن أخذ بهذه أو بهذه؛ لأن الكل يبين له أن الألف حذفت في كلمة قرءان في مطنين، وأن الكل يبين أن ألف موازين حذفت في كل مواطنها في كتاب الله عز وجل.

والجكني نسبة إلى المنطقة التي سميت باسم ساكنها الأول: "جاكن الأبر"، ولم أتمكن من تمييز صاحب النظم لأمر عدة؛ ومنها:

ومن بين النصوص التي نالت الانتشار الواسع بين المدارس القراءانية بالمغرب العربي: الجكانية "نظم الجكني". وعن التعريف بهذا النظم أقول:

الجكنية أو الجكني: نظم من المنظومات التي اعتمد عليها شيوخ المدارس القراءانية بالمغرب العربي، وما هي إلا تطبيق لما ذكرته من اعتنائهم بحفظ نصوص ضبط ورسم كتاب الله عز وجل، ونظم الجكني بين فيه ناظمه "الألفات" المحذوفة من كلمات القرءان، وذلك لكثرتها، والتي كثيرا ما يقع الراسم في الخطأ فيها، والخطأ فيها منقصة لصاحبها تلحق به العار أو تحرمه المرتبة العليا بين أقرانه أو مجتمعه.

والجكني لم يلتزم فيه صاحبه الوزن، فهو مختل الوزن في كثير من أبياته.

ولقد اعتمدت في تصحيحه على سبع نسخ من مختلف مناطق الجزائر، واشترك جلها في العديد من الأخطاء القاتلة، وقد أشرت في مواطن عديدة إلى بعض منها، وهذا في أهم مسائل الكتاب: "المحذوف" وأما الخطأ في الكتابة والضبط فإنني لم أشر إليه لكثرتة.

أن أبناء جاكن القليل منهم هم الذين
لم يقل الشعر!!!

هذه إشارات لطيفة أسأل الله أن
يجعلنا من خدمة كتابه المجيد، وأن
يجعلنا من أهله في الدنيا والآخرة. آمين.

منهجي في خدمة هذه المنظومة: قمت
بتصحيح حروف هذه المنظومة وتوضيح
المعنى المراد من كلماتها، وقد طعمت
كلامي بالكثير من النصوص التي كانت في
خاطري وقت الكتابة، وقبلها الإشارة إلى
للطائف العلمية المختلفة، وهي بحق
تحتاج إلى مزيد من العناية.

وإنني أشكر المدير الفرعي للتعليم
القرءاني السيد: عزوق محمد على
حرصه على الرقي بمستوى التعليم
القرءاني وتيسير تعلم الرسم والضبط
القرءاني أمام طلبة المدارس القرءانية،
وذلك بما ينشر من المقالات المتعلقة
بهذا العلم الذي يكاد ينعدم بين أهل
الاختصاص فضلا عن غيرهم.

وإنني سوف أقدم النظم كاملا
مصححا مضبوطة كلماته وفق الرسم
وذلك تيسيرا لحفظه أمام الراغبين في
ذلك، وقد انتهيت من تنسيقه بقياس

الجيب، وسأطبعه عما قريب بحول الله
وفي كل ما سبق أذكر ما يناسب المقام
من النصوص التي تيسر لي جمعها من هنا
وهناك.

وأسال ربي أن يوفقي لإيصال ما
بخاطري على الوجه الذي يرضيه عني،
وأن يجعلني من خدمة كتابه وقرائه، وأن
يرفعني به حيا وميتا، إنه سميع قريب
للدعاء مجيب. وصل اللهم على سيدنا
محمد وآله وأصحابه أجمعين. آمين.